ماضي سورية ومستقبلها

(٢)

الطرق والجسور القديمة

من اشهر الآثار القديمة في سورية والعربية الطرق والجسور القديمة فانها ترى في جميع انحاء البلاد . وقد اكتشف سنة ١٥٠٧ خريطة رسمت عليها الطرق والدروب العسكرية في الامبراطورية الرومانية القديمة من بريطانيا الى الهند . والمظنون انها صنعت في القرن الرابع للمسيح وانها نسخت عن خريطة اقدم منها بكثير

وترى الطرق في بعض جوانب الصحراء محفوظة حتى الآن حفظاً عجيباً كما في الطريق الممتدة بين انطاكية وكاس في شمال سورية. فان عرضها عشرون قدماً او اكثر وهي مبلطة ومن البلاط ما طولهُ ٤ اقدام وعرضهُ ٣ . وسمك الواحدة منها كلها تقريباً ٣ اقدام ايضاً

وفي شمال سورية ايضاً بضعة جسور رومانية كاملة وكثير من الجسور التي عقدت في القرون الوسطى فهي حديثة بالنسبة الى الاولى. منها جسر المجدل شمالي حماة وهو مؤلف من اربع قناطر او خمس . ومنها جسر نهر الكلب شمالي بيروت وفيهِ ثلاث قناطر . واتفق اني رأيت هذا الجسر بعد مطر غزير سالت بهِ الاودية وجرف السيل جسرين حديثين قربهُ بناهما المهندسون الفرنسويون الواحد للمركبات العادية والآخر لسكة الحديد . فوقع منظر هذا الجسر وقعاً عظيماً في نفسي لثباتهِ على مقاومة العناصر الطبيعية هذه القرون الطوال واثبت الشيء الطيب على المهندسين الرومانيين وطأطأت رأسي امام اشباحهم اجلالاً لقدرهم واعترافاً بتفوقهم في صناعتهم

ومن الطرق المحفوظة حفظاً مدهشاً الدرب الذي بناهُ طراجنس الامبراطور الروماني سنة ١١٤ بعد المسيح وهو يمتدُّ من البصرة الى البحر الاحمر

والجسور المعقودة في العربية او الولايات العربية من الامبراطورية الرومانية كثيرة كثرتها في سورية ولكنها تختلف عنها في نوع الحجر الذي بنيت منهُ. فالجسور السورية مبنية من الحجارة الكلسية والاخرى من القوقا الاسود .

وكثير منها معقود على جداول جافة قلما يسيل الماء فيها الآن . وهذا دليل من جملة الادلة على تغير الاقليم من ذلك الزمان الى الآن

السكان القدماء وحضارتهم

واذا سأل سائل من كان سكان تلك البلاد الذين مدوا هذه الدروب المتقنة وشيدوا الهياكل وبنوا مسارح التمثيل واعلوا القصور وزخرفوا الحمامات زخرفاً نادر المثال وسكنوا بيوتاً لا ينقصها شيء من اسباب الراحة في هذه الدنيا وثووا حوتهم اضرحة رحبة لا تقل فخامة عن بيوتهم وقصورهم

اذا سأل سائل هذا السؤال قلنا لهُ ان هذا الوصف الوجيز الذي ينطوي سؤالك عليهِ كافٍ للدلالة على ان حضارة سورية والعربية بلغت شأواً رفيعاً في ذلك العهد . وهناك ما يدلُّ ايضاً على ان تلك الحضارة كانت في ذلك العهد لا تزال في اوجها وانها لم تكن قد مالت الى الزوال او دبَّ اليها شيء من الاضمحلال لما دهمتها قوى خارجية غير منظورة ودرستها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً

وكان لاهل البلاد فنون خاصة بهم أثرت فيها الفنون اليونانية حتى حين ثم نفضت عنها ذلك التأثير واستعادت رونقها الاول وصورها الاصلية ولكنها استبقت من الاثر الغريب ما زادها بهجة وطلاوة واتخذت لها طرازاً يفوق طراز سائر الفنون في ذلك الزمان

وهذا ما يقال في اللغة ايضاً . فقد كان اهل الشمال يتكلمون السريانية واهل الجنوب العربية . وتغلبت اليونانية عليهما الى حين في بعض اجزاء البلاد ولكنهما اخذتا تنتعشان وتحلان محلها في الاجزاء المشار اليها تلبية لداعي الشعور الوطني والجنسي

وظاهر من درس فنون اولئك السكان التي اكتشفت في آثارهم وعادياتهم ان معظمهم كانوا اذكياء ومتوسطي الحال من حيث الثروة . واذا قيست حضارة الامم بمقياس المنازل التي تبنيها لسكنها — وعندي انهُ مقياس صحيح — ظهر لنا ان حضارة السوريين القدماء كانت رفيعة . وان كان كثير من الكتابات التي تركوها والنقوش التي احتفروها على الآثار كثير الخطإ في التهجئة والتركيب النحوي فآ ذلك الا لان الكاتبين كانوا يكتبون بلغة اجنبية يعرفها العلماء المحدثون الآن اكثر مما عرفها اهلها اليونان في عصرهم

احوالهم المعاشية

اما قولنا ان سكان تلك البقاع كانوا متوسطي الحال في الثروة فمبنيٌّ على كتاباتهم ونقوشهم التي تركوها لنا وهي تدلُّ على انهم كانوا اهل كفاف من العيش ينفقون عن سعة وتبقى عندهم فضلة موفرة . ففي تلك النقوش ان فلاناً اهدى الى مدينتهِ حماماً عمومياً وآخر بنى كنيسة او ديراً على نفقتهِ الخاصة وهكذا . ومن كان اقل غنىً اهدى الى قريتهِ هدية على مقدار حالهِ

وكانوا اهل مسالمة ونظام ومحافظة على الامن في مجتمعهم بدليل ان كثيراً من قصورهم كانت تبنى ولا جدار او سياج حولها لحمايتها من الاعتداء . ولا ترى آثار المدن والقلاع والثكنات المسورة الاَّ في جهة الفرات شمالاً واطراف البادية شرقاً فكانت الاسوار تقام تحوطاً من الفرس من الجهة الواحدة او قبائل الصحراء من الجهة الاخرى

على انهم لم يكونوا من كبار اصحاب العقار بدليل قرب مدنهم بعضها من بعض وبالتالي لم يربوا قطعاناً كبيرة من الماشية ولكنهم كانوا يزرعون شجر الزيتون والكروم ويعصرون الزيت والخمر على قدر كبير وخصوصاً في الشمال بدليل كثرة المعاصر . والمرجح انهم كانوا يرسلون زيتهم وخمرهم الى انطاكية وغيرها من المدن الكبرى . وليس ببعيد انهم كانوا يصدرون منها الى خارج البلاد بطريق البحر

وكثير من المدن اسواق صرفة للبيع والشراء وكانت التجارة زاهية بلاريب بين هذه المدن السورية ومدن الساحل والبلاد الواقعة شرقاً . ولا ريب كذلك ان تجارة القوافل بين البلاد الجنوبية والعربية ومصر وفارس كانت واسعة النطاق . ففي بعض الكتابات ان تاجراً خرج بقافلة الى نهر السند او الهند وآخر سافر بمهمة سياسية الى رومية

آخرة حضارتهم

ليس من السهل ان نعرف لاول وهلة سبب انقراض تلك الحضارة الزاهرة هذا الانقراض السريع . وكلُّ ما يخبرنا بهِ التاريخ انهُ طغى على البلاد سيلان من الغزاة سيل الغزاة الفرس من الشرق وسيل الغزاة العرب من الجنوب في الثلث

الاول من القرن السابع بعد المسيح . وكانت عادة الفرس انهم اذا غزوا بلاداً ما ولم يقووا على البقاء فيها جلوا عنها ودمروا جزءاً كبيراً منها يفصل بينهم وبينها فيأمنون بذلك قيام البلاد المغزوة للاخذ بالثار. فلا يبعد والحالة هذه بعد احتياجهم لتلك البلاد ان يكونوا قد قطعوا ما فيها من غابات الزيتون والكروم وخربوا المعاصر وهدموا جدران الحقول

ولكن حربين تسيل فيهما الدماء انهاراً ويكثر فيهما التخريب والتقتيل والاسر لا يحولان بلداً خصيباً قفراً جديباً في مثل هذا الزمن الوجيز . فلا بدّ فوق ذلك من طروء تغيرات طبيعية كبيرة ربما كانت يد الانسان معجلة بها

القيظ احد الاسباب

رأي هنتنتن

تعلم علم اليقين عن تربة تلك البلاد واقليمها في سالف الزمان ان الآكام الشمالية كانت تحرث وتزرع وهي لا تصلح لحرث ولا لزرع الآن . ونجد مثلث من معاصر الزيت والخمر الخربة حيث لا يمكن زرع الزيتون والكرم الآن. وجوانب بعض الآكام مكتظة بآثار الكروم طبقة على طبقة ولا تربة هناك الآن. وجداول الماء ومسايله جافة ملآنة حصىً ورملاً ولا يرى الماء فيها على مدار السنة الآن في حين ان الجسور عقدت عليها مما يدلّ على انها كانت انهاراً كثيرة الماء في الزمان الماضي . وهناك آبار لا ماء فيها وينابيع ناضبة في الخرائب وما حولها . وفي كثير من الخرائب صهاريج واحواض للماء

وفي بعض مدن الجزء الجنوبي من سورية ومدينتين من مدن الجزء الشمالي احواض عمومية ولكنها ليست من الكبر بحيث كانت تكفي اهل تلك المدن مدة طويلة . وليس ثمة اقل اثر يدلّ على ان اهل تلك البلاد كانوا يحفرون الترع لارواء حقولهم ولو كان ثمة ترع لبقي اثر يدل عليها. وكان عند أهل الشمال غابات يخرج خشباً طويلاً وثخيناً لسقوف المنازل .وكانت منازلهم تسقف بالخشب ولو كان الخشب نادراً وغالياً لجعلوا السقوف عقوداً واقبية على مثال معظم الابنية في الجنوب

اما الآن فان الجزء الشمالي الذي كان كثير الغابات قديماً لا شجرة فيه الآن

في حين ان جبال جنوب سورية كثيرة غابات السنديان والارز الآن وكان اهلها لا يجدون من الخشب قدماً ما يكفي لسقوف منازلهم فلذلك عقدوها بالحجارة كما تقدم القول . والسياح الذين ساحوا في البلاد منذ نحو ٥٠ سنة رووا انهُ كان فيها حينئذٍ غابات واسعة من شجر الكستنا

ومهما يكن من المذهب القائل ان قلة الغابات في بلاد تفضي الى قلة الامطار فواضح ان جزءاً كبيراً من سورية كان فيما سلف كثير الارض الصالحة للزرع كثير الغابات والينابيع والانهار وهو خالٍ منها الآن . وواضح ايضاً ان امطارهُ كانت اغزر واعمّ مما هي الآن . ويظهر ان الاهالي استعملوا قسماً كبيراً من خشب الغابات للبناء ولعمل الفحم منهُ ولو كانوا يسرّحون الغنم والمعزى لترعى في الغابات ما نمت اشجار الغابات بعد قطعها لاخذ الخشب منها . ومعلوم ان غابات الزيتون وجدران الحقول تحفظ التربة على جوانب الآكام فاذا ازيلت لم يبق ثمت ما يمنع جرف التربة وصيرورة الآكام جرداء لا تصلح لزراعة ولا لرعاية

اما رأيُ الدكتور هنتنتن المذكور آنفاً فقد بسطهُ في كتابهِ المعنون « فلسطين وتحوّلها » (Palestine and Its Transformation) واعتمد في بعضهِ على رحلة جمعية العاديات الاميركية الى سورية ونتائج تنقيبها فيها سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٠ وعلى بعثتين للآثار والعاديات ارسلتهما جامعة برنستن الى تلك البلاد سنة ١٩٠٤ — ١٩٠٥ وسنة ١٩٠٩ وخلاصة رأيهِ المسمى النبضات الاقليمية (Climatic Pulsations) ان البلاد تتاوبتها ادوار ريّ وقيظ مدى اجيال كثيرة وكلُّ دور من ادوار القيظ كان يترك البلاد شرًّا مما كانت قبلهُ من حيث الجفاف وقلة الغيث . وكان الدكتور قد اعتمد في هذه النتيجة بعض الشيء على مباحثي انا . وزبدة هذه المباحث انهُ لم تظهر كتابات ولا نقوش يستفاد منها شيء بهذا العدد وان اهل تلك البلاد انقطعوا عن البناء عام الانقطاع بين سنة ٢٥٢ وسنة ٣٢٤ من التاريخ المسيحي . ولكني مضطرٌّ الآن الى تعديل هذه النتيجة لأن المباحث المتأخرة اخرجت لنا اربع عشرة كتابة موزعة توزيعاً متساوياً على الفترة المشار اليها ومدتها ٧٢ سنة (٢٥٢ — ٣٢٤)

وزد على ذلك ان الدكتور قال في كتابهِ معتمداً على مباحثي ومباحث غيري ان حركة البناء تجددت بين عرب سورية بعد سنة ٦١٠ وهو قول فيهِ ما فيهِ من

الخطإ فان الادلة على نشاط العرب الى البناء ضئيلة جدًّا. فان الامويين بنوا اربع بنايات كبيرة لا غير على ما نعلم في القرن الثامن للمسيح. وبنى العرب قلاعاً وحصوناً كثيرة في طول سورية وعرضها في القرن الحادي عشر والثاني عشر. واقاموا اضرحة قليلة في الاعصر المتوسطة ولكن حضارتهم كانت محصورة في دائرة ضيقة ومدن قليلة بالنسبة الى المدن التي لا اثر فيها لاقامتهم. ويظهر ان اكثرية مدن سورية المسيحية هاجرها اهلها في اوائل القرن السابع وبقيت من ذلك العهد الى الآن خراباً يباباً.

السكان الحاليون

ان الآكام التي في اقصى الشمال غير آهلة ولكن يقصدها في بعض فصول السنة طوائف من التركمان يضربون خيامهم فيها وينزل بعض جوانبها ثالثتان او ثلاث من الاكراد. وفي التلال الكلسية التي الى شرقي العاصي قرى حقيرة جدًّا يسكنها قوم من الفلاحين يتكلمون العربية وبينهم قليل من الدروز. والى الشرق منهم سهل يصلح للزراعة قبل مجيئك الى الصحراء. وفيه مدن وقرى صغيرة يسكنها فلاحون يعتمدون في حرث ارضهم وزرعها على مطر غزير يرويها والاَّ اهملت وجاعوا. على ان سائر الارض الواقعة الى الشرق حتى الفرات صحراء مجدبة فلما نطأها قدم احد سوى القليل من البدو الرحّل

واذا انحدر المرء جنوباً حذاء البقعة الضيقة المزروعة التي على اطراف الصحراء يجد شعباً مختلطاً بعد اجتيازه مخوم حماه. ويجد قرى من قرى فلاحي المسلمين العاديين ومن قرى الشراكسة وهي احسن بناء واكثر نظافة وترتيباً من القرى الاخرى. وقرى كبيرة من قرى المسيحيين اليعقوبيين القدماء وهم يتكلمون السريانية و« طقسهم » الديني هو « الطقس » القديم الذين كان آباؤهم يستعملونهُ عند تأسيس طريقتهم في القرن الخامس للمسيح

ويقطن سهل النقرة الخصيب جنوبي دمشق عرب مسلمون وبينهم قليل من المسيحيين ويسمى سكان هذه البقعة الحوارنة نسبة الى حوران واعتمادهم في معيشتهم على زرع القمح الحوراني المشهور. اما القرى التي على سفوح الآكام الغربية فيسكنها في الاكثر شراكسة جاء بهم السلطان عبد الحميد اليها وسلّحهم وملكهم اغزر عيون تلك البقعة ليكون منهم حاجز حصين بينهُ وبين العرب

ويقطن الآكام الشرقية في حوران الدروز حتى سميت هذه الآكام باسمهم اي جبل الدروز . وهم امة مستقلة على صغرها حديثة العهد بالاقامة هناك ولغتهم العربية ولكنهم يختلفون عن جيرانهم في لون بشرتهم وملامحهم وقاماتهم وعاداتهم. وهم يتزوجون زوجة واحدة وديانتهم سرية ولهم زعماء اصحاب مكانة عظيمة عندهم وسلطة كبيرة عليهم . وارض الجبل اخصب من الجبال الشمالية . ولكنها مع ذلك اقل خصباً مما كانت في سالف الزمن . وعندهم قطعان كبيرة من الماشية يعهدون في رعايتها الى البدو فيقصدون بها ارض الجوف شتاء . ومنازلهم كبيرة رحبة فيها جميع اسباب الراحة . وزعماؤهم يعيشون عيشة تذكرنا عيشة ايوب في ايام رخائه ونعمته

« من غريب ما يقال ان المسافر بعد ان يسيح بين قبائل البدو والفلاحين بوجوههم السمراء يلتقي قوماً مثل هؤلاء فيهم كثير من بيض الوجوه لو اخذوا الى شمال اوربا ما تكرهم اهلها لشدة شبههم بهم . وقد رأيت زعيمهم الديني الملقب بشيخ الدين فوجدته ابيض الوجه اصهب الشعر ذا ادب جمّ وعلم ليس بقليل

ويسكن بقعة اللجا شمالي جبل حوران قوم من الدروز والبدو والبدو النصارى. وهؤلاء يدينون بالمسيحية على ما كانت في عصورها الاولى ويأسفون لانهم فقدوا الكهنوت على ما يقولون ولان قبورهم لا يبارك عليها. وتراهم من حين الى حين يقصدون قرية مسيحية في جوارهم لاتمام فرض الزواج على يد كاهن او لتعميد (تنصير) اولادهم وكثيراً ما يعمدون خمسة او ستة منهم معاً

وخلاصة هذا المقال ان تلك البلاد الواسعة المسماة بادية الشام بلاد جهل وفقر وخراب الآن وكانت فيما مرّ بلاد علم وغنى وعمران . لا يشذّ عن ذلك الا الدروز فان « رؤوسهم عالية يكرمون ضيفهم غاية الاكرام ويحتفلون به احتفال اهل السعة والخير الوفير . وبيوتهم رحبة رياشها فاخر وملابسهم انيقة في الغالب . واما من عداهم من اهل تلك البلاد فعلى جانب عظيم من الذل والمسكنة والشبهة والخرافات. وهذا التغير العظيم حدث في خلال ثلاثة عشر قرناً وكان بعض سببه طبيعياً اما السبب الاعظم فسوء الحكم » انتهى باختصار